

أنفاق غزة-إسرائيل: عبقرية نقل المعركة تحت الأرض



أول مرة منذ نهاية الجولة الأخيرة من الحرب بين إسرائيل وحماس عام 2014، والمعروفة بعملية الجرف الصامد في إسرائيل، اكتشفت قوات الدفاع الإسرائيلي أنفاق مخصصة لمهاجمة إسرائيل من غزة إلى الداخل الإسرائيلي، وهي أنفاق شرعت حماس في حفرها بعد انتهاء الحرب الأخيرة للقيام بعمليات هجومية داخل إسرائيل، مثل عملية أسر جلعاد شاليط التي قامت بها عن طريق نفق أيضاً عام 2006 وقتلت أثناءها جنديين إسرائيليين آخرين.

وفق ما كشفت عنه القوات الإسرائيلية، فإن هناك تطوراً واضحاً في حفر الأنفاق وتجهيزها، فالأنفاق مكونة الآن من وحدات خرسانية أكثر سُمكاً لمنع الماء من الوصول لها أثناء المطر والتسبب بانهيارها، وهي مجهزة بالكامل بالكهرباء والاتصالات والتهوية والقضبان الخاصة للنقل، ”لقد استمرت عملية الكشف عن النفق لمدة شهرين، ونحن نعتقد بأن هناك المزيد،“ هكذا يقول بيتر لرنر المتحدث باسم قوات الدفاع الإسرائيلية، ”النفق الذي وجدناه على بعد بضعة أمتار من سور بقرب تجمع سكني إسرائيلي كان كبيراً بما يكفي ليقف فيه رجل ويحمل الأسلحة بل وقذائف الآر بي جي.“

حماس وحرب الأنفاق الأكثر كفاءة

تعد الأنفاق حالياً التحدي الأبرز الذي تواجهه إسرائيل لا سيما مع التطور في بنائها وتجهيزها من جانب حماس، وهو تحدي يستنزف ميزانيتها العسكرية في الحقيقة نظراً لاحتياجها إلى مئات الملايين من الدولارات لتطوير تقنيات الكشف عن الأنفاق تحت الأرض وتحديد مواقعها وعمقها بدقة ومن ثم تدميرها، في مقابل ميزانية أقل بكثير تتكبدتها حماس لحفر النفق الواحد لا تتعدى 200 ألف دولار، وهو ما يعقد المعركة بين الطرفين أكثر من صواريخ حماس في السابق، والتي نجحت القبة الحديدية

الإسرائيلية في الحرب الأخيرة بقطع الطريق على 90% منها.

ليس غريباً إذن الجهد الكبير الذي تبذله حماس هذه الأيام لبناء المزيد من الأنفاق بطول حدود القطاع مع إسرائيل، والتي صرحت أن عددها يصل لخمسين، وهي أنفاق يشعر بها أحياناً سكان الكيبوتز على الحدود مع غزة داخل إسرائيل كما يقول بعض الإسرائيليين القاطنين هناك، "لقد سمعت صوت مطرقة وإزميل بشكل واضح، وجاري هنا يقول بأنه يستطيع سماع أصوات حفر من تحتنا،" هكذا يقول أحد سكان قرية إسرائيلية مجاورة.



جهود التنقيب الإسرائيلية عن أنفاق غزة

في جنوب إسرائيل المتاخمة لغزة ينتشر القلق هذه الأيام من اندلاع حرب جديدة بسبب الأنفاق قد لا تكون إسرائيل جاهزة لها بما يكفي، وهو قلق حاول وزير الدفاع الإسرائيلي موشيه يعالون أن يخفف من حدته بإعلان الجاهزية الإسرائيلية التامة لمواجهة حرب "تحت الأرض" في أي وقت، غير أن معالم المعركة التي لا تزال خفية ولو جزئياً على إسرائيل تعني أن الثقة التامة بإشعال حرب كاملة على غزة غير موجودة، وهو ربما هدف آخر من معركة الأنفاق التي تمضي فيها حماس؛ أن تنقل المعركة لمكان يصعب على الإسرائيليين فيه امتلاك زمام المبادرة، وبالتالي تصبح هي أقدر على اختيار التوقيت المناسب لها ولقطاع غزة لإشعال المعارك.

يشي بذلك الارتباك الذي أصاب إسرائيل في 2014 أثناء حربها مع حماس بعد أن وصل 13 مسلحاً من الحركة إلى حقل تابع لكيبوتز إسرائيلي في الجنوب عبر نفق بين القطاع وإسرائيل، في مفاجأة غيرت من الحسابات الإسرائيلية التي انصبت سابقاً على ضرب حماس داخل القطاع وقواعدها الصاروخية وإمكانياتها العسكرية الظاهرة على الأرض، إذ أبرزت الحادثة أنذاك عدم إدراك إسرائيل للدور الذي قد تلعبه شبكة الأنفاق وحجمها، وقد صرح يعالون حينها أن تدمير تلك الأنفاق سيستغرق يومين أو ثلاثة

أثناء الحرب، وهي فترة امتدت لسبعة أسابيع دون أن تحقق النتائج المرجوة، قبل أن يستغرق الأمر تمويلًا وأبحاثًا ضخمة لكشف وتدمير مجموعة قليلة منها خلال العامين الماضيين، وهي مجموعة لا تعددي نقطة من بحر الأنفاق الموجودة على حد قول مسؤولي حماس.

”لقد كان واضحًا من الأنفاق التي وجدناها في يوليو 2014 أننا نواجه أمرًا مختلفًا تمامًا عن الأنفاق الضيقة التي عرفناها سابقًا؛ إنها أنفاق واسعة ومجهزة بنظام اتصالات داخلي وبجدران أسمنتية سميكة، وهي محفورة على أعماق أكبر ويمكنك أن تتحرك فيها بأريحية، وما إن دخلتها حتى أدركت أن أهدافها تتعدى مجرد اختطاف جندي من على الحدود؛ إنها مصممة لنقل مجموعة مقاتلين كاملة في وقت قصيرة مباشرة إلى داخل إسرائيل،“ هكذا يقول أحد المهندسين الإسرائيليين ممن يعكفون على تصميم تقنيات لكشف الأنفاق الفلسطينية.

700 مليون دولار تكبدتها إسرائيل العام الماضي لتطوير تقنيات كشف الأنفاق وتدميرها، وهي تقنيات تؤتي ثمارها جزئيًا كما أقرت حماس نفسها، والتي وجدت معدات إسرائيلية في مواقع الأنفاق المدمرة مثل أجهزة الاستشعار عن البعوض والكاميرات، ناهيك عن منظومة استشعار جديدة طورتها شركة إلكترونيات إسرائيلية سيبدأ استخدامها قريبًا، ولكنها منظومة سيكلف تشغيلها حوالي مليون دولار لتغطية كل كيلومتر واحد فقط، مما يعني استمرار الضغط على الميزانية العسكرية الإسرائيلية لرصد الأنفاق وتدميرها، إذ أن نفس المبلغ لدى حماس يمكن إنفاقه لحفر ثلاثة أو خمسة أنفاق مختلفة، ناهيك عن التطورات الحتمية التي ستشهدتها عمليات حفر الأنفاق مستقبلاً مما يستدعي الإبقاء على ميزانية البحوث الإسرائيلية.

ليست هناك قبب حديدية تحت الأرض



الأمر إذن أكثر تكلفة من مجرد امتلاك منظومة دفاع صاروخي يتم تدشينها مرة واحدة لحماية إسرائيل

باستمرار من الصواريخ، ولكنها منظومة معقدة يحتاج تشغيلها وتطويرها لتكاليف مستمرة، وهي منظومة تعمل على مستوى دقيق وصغير لرصد نشاطات تحت الأرض، وليست منظومة ضخمة تغطي إسرائيل كلها بالجملة لحماية سمائها، وهو ما يشي لنا بالصعوبات التقنية لا المالية فقط، التي تتكبدها إسرائيل في معركتها مع حماس تحت الأرض.

”إننا نريد قبة حديدية ولكن تحت الأرض،“ هكذا طالب أحد سكان جنوب إسرائيل، وهو طلب شبه مستحيل بالطبع بالنظر للاختلاف المعروف بين وضوح السماوات وسهولة السيطرة عليها بالأنظمة العسكرية المعتادة، وتعقيد النشاط البشري الدقيق تحت الأرض، والذي يهدف إلى جلب مقاتلي حماس لمواجهة الجنود الإسرائيليين على الطرف الآخر وجهًا لوجه، وللمقارنة هنا بين سهولة تدشين القبة الحديدية وصعوبة تحقيق منظومة دفاعية مشابهة لمواجهة الأنفاق، يمكننا أن نقارن بين سهولة صيد السمك بإلقاء الشباك في المياه أو حتى صيد الطيور في وضوح النهار بالبنادق، ومطاردة أسراب نمل تتدفق عبر أنفاق صغيرة يصعب الجزم في أي لحظة بموقعها وحجمها علاوة على أعدادها.

يُقر بتلك الحقيقة داني جولد بنفسه، والذي يعتبر الأب الروحي للقبة الحديدية، ففي حديث لأحد الصحفيين معه في تل أبيب، قال داني أن الأنفاق ليست بالأمر البسيط أبدًا على المستوى التكنولوجي كما يعتقد البعض، ”إنها معضلة لم يتمكن أحد من حلها حتى الآن، وقد بدأت منذ حرب فيتنام ولا تزال الولايات المتحدة تعاني منها في عمليات التهريب بينها وبين المكسيك،“ لا سيما وأن النقاط التي تبدأ منها على الناحية الأخرى (في غزة) غالبًا ما يستحيل الكشف عنها ولو بالأقمار الصناعية، فالحفر عادة ما يبدأ من الطابق السفلي لمسجد أو مستشفى أو حتى منازل بعض السكان، وتكون مداخل الأنفاق فيها مغطاة بشكل لا يتيح حتى لجميع سكان المنطقة أن يعرفوا بأن هناك مدخل لنفق من هنا، وهو ما يصعب بالطبع مهمة جواسيس إسرائيل داخل غزة.

علاوة على كل ذلك، لا تُعد الصعوبة فقط في كشف الأنفاق وموقعها تحت الأرض، بل والتيقن أثناء أي حرب مستقبلية من أعدادها أولًا، وأحجامها ثانيًا، بما يتيح تقدير القوات اللازمة لمواجهة أي عدد من المقاتلين قد يخرج منها وتحديد مواقع تركز تلك القوات، وإن كان عنصر التوقيت بعد كل ذلك سيظل عاملًا للاستنزاف نتيجة عدم قدرة القيادة على تحديد توقيت الهجوم المفاجئ، والذي لا تمكن معرفته إلا عند وصول المقاتلين بالفعل لموقع الهجوم، وبالتالي احتياجها لأن تكون على أهبة الاستعداد لهجوم في أي لحظة، وهو ما يفقدها زمام المبادرة نوعًا ما، ويشكل ضغطًا نفسيًا على سكان جنوب إسرائيل بالطبع، مضافًا للضغط المالي الذي تشكله تلك المعركة اللاموازية على الجيش النظامي الإسرائيلي.

*مصدر المعلومات والإحصائيات: نيويورك